



الكائن الذي كنته، وكذبة مهولة يستعذبها الفارغون
لسد شيء من العجز والفشل؛ ونبته مزعجة يجب أن
تُستأصل قبل أن تستفحل!.

في العاشرة مساءً اهتز هاتفي: «أنت شاب نادر،
سلاماً لروحك الطيبة».

رسالة من مجهول، لم أكرث بها أو بصاحبها،
تحية ربما وردت من جوال صديق غير مدون في سجل
هاتفي.. هكذا ظننت!.

في العاشرة من مساء اليوم الثاني تأتيني رسالة من
ذات الرقم ومن المجهول عينه: كلما فكرت أن أترك
الكتابة لك، أناملي تلهت للكتابة دون شعور مني..
وأردف: كلما حاولت نبذك من دمي ركضت إلي
يدي تشد وثاقي!..

من يكون ذلك المرسل المجهول الذي لم
يستطع كبح جماح قلمه ليكتب لي؟ بدأ طوفان الأسئلة
يغمرنني، لم يتراجع إلا بهمس نهض من أعماقي:
لا تذهب بعيداً، فلربما كانت الرسالة قد أخطأت
وجهتها.

الرسائل توالى تباعاً على ذات النسق الأنيق من
ذات «المجهول»، وفي التوقيت ذاته من كل مساء.. في
الجامعة، يتأبني شعور غريب.. ثمة من يترصدني،
يتحرك خلفي، شبح يحصي أنفاسي، يعد خطاي..
أدري أن ذلك من نسج أوهامي التي خلفتها تلك
الرسائل، أحاول طرد الهاجس من رأسي، وأمنع نفسي
من كثرة الالتفات حتى لا أبدو مضطرباً يبعث على
الضحك.

في آخر المدرجات الخلفية لقاعة مهجورة تستخدمها
إدارة الجامعة قاعة احتياطية، وقلم يحدث ذلك،
حيث اعتدت الجلوس - في حرائي - بعيداً عن الصخب
في خلوة مع أفكار، دنا أحدهم مني هامساً: حسام
هناك من يسأل عنك وينتظرك خارج القاعة.

إهداء..

خالد بريه - تركيا



في اللحظة الفارقة بين حياتين، سطرت قصتي..
دبجتها بحروف السهاد. القلب مضخة للدم وحسب،
مفهوم نقشه في وجداني إزميل قيم وتقاليد حددت
سلوك أمثالي - كشاب ملتزم - وطريقة تفكيره،
ونظرته للحياة، الحياة التي لم تكن سوى وسيلة
للموت، قيم وتقاليد صنعت مني كائناً خشبياً يسير
على قدمين، يقر بكل شيء إلا العاطفة، فالحب مفردة
لم أكن أسمع بها إلا في قصص الغاوين في العظام
التي كانت تطرق أسماعنا، أمور مبتذلة لا تليق بهذا



ما إن جمعتُ شتاتي الذي بعثره، حتى ذابَ طيفه،
لم يمنحني فرصةً لأسئلة، ولم أتمكن من الإلزام
بملامحه، عصفتُ بي حيرةً شديدة.. من ذا تراه
ينتظرني؟! وكيف عرفَ أنني أجلس هنا؟

شعرتُ كأنني أحتاج ردهاً من الزمن لقطع
المسافة من مكاني في آخرِ القاعة إلى بابها. لم
أجد من ينتظرني خارج القاعة، أو حتى في الأروقة
المحيطة بها، أفقتُ من غفوة الدهشة على وقع رسالةٍ
من ذات المجهول دلفت صندوق الوارد بهاتفي:
«سلامٌ عليك، حاولت لكن لم أقوَ على لقاءك برغم
شدة حاجتي لذلك.. فاعذرني». تحولت عاصفة
الحيرة إلى طوفانٍ كان كفيلاً ببعثرة ما تبقى مني،
أغلقتُ هاتفي وغرقتُ في أوهامي وحيرتي، قابِعٌ في
مكاني جسداً لا روح فيه، انصبَّ تفكيري في حل هذا
اللفز الذي أعيشه منذ أيام.

عند عودتي إلى المنزل رنَّ هاتفي، إنه ذات الرقم
الذي يطرني بحروف طالما شغلت بالي، بصوت
هادئ، قلت: نعم، لكن أحداً لم يجب، ألوألو.. لا أحد
يجيب، أغلقت الهاتف، لأهرب في قيلولة أستريح فيها
من ضجيج «المجهول» الذي بات يؤرقني.

عدتُ من صلاة العشاء إلى مكتبي، فرغتُ
من رصٍّ مجموعة كتب أهديت لي وترتيبها.. وبينما
كنتُ أمتطي سهوة القلم أجول به عالم الفكر، قطع
جولتي تلك دوي رنين الهاتف، فتحت عيني جيداً، إنه
ذات الرقم..

- نعم..

- السلام عليكم.. جاءني الرد في صوتٍ أنثوي
رخيم..

- وعليكم السلام.. رددتُ أنا وعقدت الحيرة
وأخواتها لساني.

- كيف حالك؟ أحببتُ أن أسمع صوتك فأنت

دائماً صموت، وعلى فكرة أنت شابٌ رائع..! وأغلقتِ
السماعة.

أف..! لم تترك لي فرصةً لأسأله: من تكون؟
وماذا تريد؟

بعد يومين عاودت الاتصال بي، تكرر ذلك منها على
مدار الأيام التالية، كان الكلام يقتصر على السؤال
حول أحوالي والجامعة.. استمرَّ هذا الأمر بشكل شبه
يومي في كل مرة، وتحت وطأة الشعور بالإثم الذي كان
يكبرُ في نفسي مع الأيام، كنتُ أعقد العزم على أن
أسأله من تكون؟ وما هو المطلوب مني؟ وأطلب منها
ألا تعاود الاتصال بي، لكنها لم تكن تمنحني فرصةً
لذلك، أو ربما أنني لفرط استمتاعي لم أُرِد مقاطعة
ذلك الصوت ذي البحة الدافئة المحببة للنفس.

نعم.. كان صوتها عذباً يتدفقُ بسلاسة وصفاء
كماء السلسبيل. لا لا لا، أظن أنه اللاوعي الكامن في

أعماق النفس، ألم يقل أحدهم: إن اللاوعي هو النفس الأمار، إذن بالتأكيد هو. تبا له من «لا وعي» سيئاً، يزين لي اقرار تلك المعصية، وكأنه يقول لي: «لا غصاصة، ولا داع للفظاظلة، ما دام أنها فتاة لا يشتُم من حديثها سوى الأدب، وهل هي أذنبت حين وجدت نفسها معجبة بشباب، حدّ وصفها له دائماً، جمع بين الحُسنيين الخلق والخلق».

لا أنكر أن رسائلها كانت تنتشليني من قاع بئر الحرمان، وكنت أقرأ حروفها كزخات مطر أحييت أرضاً قاحلة ملّت من عناق الجفاف، تغسلني كلماتها حين تهطل بماء الحياة، تبدد شيئاً من عزلة كنت أعيشها، رسائلها غيّت انهمر على فؤادي فأحاله واحة مشرقة.. لكن.. سرعان ما يزول عني ذلك الأثر، ليعود قلبي إلى سيرته الأولى، هوة سحيقة مليئة بالظلام، ممثلاً بالعجز عن إسكات إحساسي بالظلم تجاه فتاة لم تتمكن من الصمت عن البوح بأمر لا طاقة لها به، فتظلم الدنيا في وجهي مرة أخرى.

أغلق الهاتف وأظلم في صراع بين مبادئي، ونوازع نفسي. قررت أن لا أجيب على أي اتصال تحمله رباحها، كان يرن هاتفي، فتتسارع دقات القلب، وتنبُّ للرد أصابعي، لكنني أصررت بصرامة أن أصوم عن الحديث معها، لأنني أخشى أن أكون عبداً لصوت امرأة يأتيني كشلال حب يرويني حدّ الشبع، فتدوي بين ضلوعي أجراس الحياة تارة، ويقذف بي إلى مفازات الهلاك تارات أخرى.

في لحظة ما، غلبني شعور بالذنب، وإحساس بالخطيئة، فكتبتُ لها: اعذريني: لا أستطيع أن أعيش بقلب، نصفه لله، ونصفه لامرأة!! كانت هذه الرسالة طاحونة الأنين الدائم لإقناعها بأن تصمت عن حبها، أن تدفنه، أن تهيل عليه التراب، أن تقف صامدة بثبات في وجه قلبها المجنون بحب مثلي لا يعرف

عن الحب شيئاً سوى تهمة العيب المسكة بتلابيبه، وذنّب مشين يستوجب التوبة والاعتسال سبعة إحداهن بتراب الوهم الذي سربل روعي.

لماذا يعاقب المحب إذا ابتلي يوماً بسلطان الحب؟! في عالم الحجارة فقط يكون الحب شيئاً من الجرم، أو هو الجرم ذاته، يصبح الحرمان زادنا، والآلام طريقنا إذا بحنا بما لا طاقة لنا به، ثمة فصل ظالم بين حب الله، وحب امرأة ظاهرة ذنبها أنها أحبت دون شعور منها، الحب فضيلة لا جريمة.. رسالة وصلتني منها على هاتفي رداً على رسالتي.

كلما فكرت في وقّع رسالتي عليها، يعتريني الأرق، يجافيني السكون، فأنصرف لقراءة رسائلها التي احتفظت بها في هاتفي، أقرأها المأ المأ، كنت أجدها تعاتبني بصمت، لا، بل تحاكمني على ما اقترفته بحقها، أما الضمير فيعاقبني بسياطه الموجهة، فيطوئني النوم في عالمه خائر القوى من هول حروفها. في الجامعة - وبعد انقطاع - رنّ هاتفي مرة، وأخرى، وثالثة..، لكنني لم أجب. «كنت أود أن أراك، فقد قررت الرحيل، لا أستطيع مواصلة الدراسة في جامعة تذكرني بك دوماً» قالت لي في رسالتها التي صعقتني ودخلت على إثرها حالة أشبه بغيبوبة مؤقتة، أثقل الحزن كاهلي، تملّكني شعور بالأسف، بالآلم، بالغباء، بالندم، ورغبة في البكاء.

قبل المغرب من ذلك اليوم الأسيف وصلتني رسالة: «أدخل الآن أبواب العاصمة، ادعُ الله لي أن أنساك»

قضيت ليلتي في بكاء مستمر، لا أدري لماذا البكاء؟! كيف أبكي رحيلها وأنا من وأدت ذلك الطهر في مهده.. أم هو شعور بالخذلان، أم إحساس بالضعف نتيجة حبها الذي لامس قلباً يكابر الحب ويسعى لإخراجه ليس كرهاً فيه، وإنما لشعور سابق



أن بقاءه في القلب أمر لا يليق؟

كنت إذا جنّ الليل، وأرعى معطفه فوق رؤوس البشر يلوح طيفها لي، فأضطرب كعصفور مبلل من بكاء السماء. مضت أيام وشهور وأنا في حالة عزاء دائم، لكن الماتم وحده ليس ينقذ القلب المحاط بالتيران، ولا يُعيد الراحلين..

ذهب الذين أحبهم

وبقيت مثل السيف فرداً

نعم.. ذهبوا وانسحبوا باكراً على رؤوس أقدامهم كي لا يزعجوا أحداً، أثروا الرحيل للفرار من ألم الجفاء، حدثت نفسي وأنا أعض على شفتي السفلى حتى كدت أغرس أسناني وأنا أكابد الألم الذي خلفه رحيلها.

لا أدري كيف دارت رحي الأيام وهي حبلت بآلام النوى؟ كنت قد تخرجت للتو من الجامعة، وكان والدي قرر أن تنتقل إلى العاصمة لطبيعة عمله الجديد.. على مشارف أبوابها تذكرت رسالتها: أدخل الآن أبواب العاصمة، ادع الله لي أن أنساك..

في العاصمة زادني الفراغ والغربة وحشة، أجتزأ أحزاني الدفينة، تارة أغوص لأسبر أغوار نفسي أبحث عن ذاتي في ثنايا الذات، وتارة أخرى أطفو على سطح الواقع الجديد، أسير وحيداً لا ألوي على شيء سوى تصفح وجوه المارة من حولي، أستم خطاها، أتحمسها في كل مكان، ثمة أمل يراودني أنني سأجدها هنا، لعل القدر يقذف بها في ساحلي من جديد.

مريض بداء عضال يمتني نفسه العافية. ولم يكن يخفف من وطأة تلك الوحشة سوى القلم، طفقت أسكب حزني الدفين على الورق، بدأت رحلة البوح، لعلي الأمل شيئاً من سكون غادرني دون أن يترك عنوانه.

وجدتني أسرد حكاية من لم يكن يعلم أن للشوق ظلاً، للرحيل ثمناً، حكاية غابرة كنت فيها الجاني والضحية، أخطها بزفرات مكتومة اعتنى بها غيائي حتى تبرعت، وغذاها الفشل حتى أزهرت، لكن هيهات على من أطفأ جذوة الحب أن يشعل أوارها من جديد، لكنني صممت أن أحطم ذلك التابوت الخشبي، أتحرر من شرنقته.

عند هبوط الليل يتراءى لي ظلها يعاتبني، رسائلها تقررنني دروس الحب، صوتها يهدم ما تبقى من بنيان قلبي، أتخيله يناديني، فالتفت فلا أرى إلا ظنين الصمت، وسراباً أحاطني منذ أن قررت الرحيل، أصرخ في الأفق ممزقاً سكون ما حولي.. أين أنت؟ أبثك مصابي، عتي التي لا بُرء لها سوى لقياك، صدقيني، لم أعد ذلك الفتى الذي جرّ ألامه بحروفه، من أوصد الأبواب بأقفال الجفاء، من أهال الموت على بساتين الجمال، من أطفأ جذوة الحب ومحا تاريخه بممحاة الخوف العتيق، لست ذلك الفتى الخشبي، لا.. لم أعد كذلك صدقيني! إنني

أحملُ في قلبي أملاً لا يعرف الانطفاء، لأن جذوته من نوركِ الذي أشعل فتيل الحب بصدق حدِّ الرحيل.

ما كنتُ أتصور يوماً أن سعادتي تتجسدُ في غائبٍ أتشوقُ لقياءه، ما كنتُ أعِي أن الحب أسمى عاطفة في الوجود، ما ظننتُ يوماً أن «الرحيل» سببٌ لليتيه والضياغ!.. أقلبُ جريدة الصباح بحثاً عنكِ، فأجدني في قائمة التائهين الذين يبحثون عن أنفسهم الضائعة. تحاشيتُ كل الطرق المؤدية إليك، أغلقتُ باب الطريق بيننا بحجرٍ من الغباء، كنتُ حينها أظنُّ أنني أشيدُ حصن الوقاية، وغفلتُ أنني أرضُ حجر آلامي على مرِّ الأيام، تعالي أيتها الراحلة القريبة أكثرَ من الروح، لماذا تُعنين في الغياب؟!

أثناء عودتي إلى المنزل بعد يومٍ مضى من البحث عنها، تهادى إلى سمعي صوتٌ شقَّ طريقه للسماء: «لم أر للمتحابين إلا الزواج!.. وليس ثمة انفصام بين التدين والحب!..»

حُزمة من الأوراق بين يدي: «شيء من الحب»، جهد الليالي والسهاد، حروفُ آلامي التي أعيشها، سيرة غبائي الذي كان، دموعُ الندم على ما فات، مشاعرُ متناقضة، وتنظيرُ للحُبِّ وانتصارُ لقيمته، وتخلُّصُ من هاجسٍ ظل يؤرقني، ومن ذكرياتٍ تطاردني، بوحٌ مكنون في نفسي قرر التمرد.. وقد كان له ذلك في ثنایا هذا «الشيء».

كنت حينها قد انتهيتُ من رحلة البوح بـ«شيء من الحب». لم أكن موقناً تماماً أن صديقي سيُفي لي بوعده، وأن «بوحى» سيبصر النور، كنتُ الوحيد القادر أن يتحسَّس عبيرها في ثنایا مولودي الورقي البكر. هاهي ذي صورتني تتدلى من إحدى زوايا الملحق الأدبي للصحيفة، أرفقها المحرر مع عرضه الموجز للكتاب في خبر الدعوة إلى حفل التوقيع. أدهشتني كلمة مهمورة بقلم أحد الكتاب في الصحيفة: «إن صفحات الحب

هي الأكثر إشراقاً في كتاب الذكريات». خيل إلي أن ذلك الكاتب الحاذق تعمد نكزي بتلك العبارة التي أمتني.

أمام جمعٍ من المثقفين الحضور في القاعة الأنيقة التي احتضنت حفل التوقيع كنتُ أتحدث بحروفٍ مرتعشة عن اعتمالات الوجد التي تشكلت بداخلي لتصبح لاحقاً: «شيء من الحب»!

اجتهدتُ في مداراة قسَماتِ الخجل التي كادت تفضحني، فأنا أتحدث هنا عن الحب، هو ذاته ذلك المعتقد الذي كُفرتُ به ذاتَ منعطفٍ في حياتي، ومزقته في إحدى الليالي برسالة في أحرف معدودة:

«عندما جئتُ إلى العاصمة ممعطياً حيرتي.. كان الوجودُ لغزاً، والسماءُ طائراً بلا جناح، والأرضُ قيداً لحرٍّ يبحث عن حقيقة تتمثل فيكِ، قرأتُ وجهك ذاتَ صباحٍ على سفح جبل منحوت بهالة من النور، واكتفيتُ بذلك، لكنني لم أكن أعرف أنني سألقاك بعد كل هذا الغياب الطويل، غيابٌ غارق في ضبابية الأيام والشهور والسنين، ضائعٌ في متاهات المستحيل، ومسرَّبٌ بكثيرٍ من الغموض، وأنا الذي لم أرك قط في دروب حياتي وأزقة دنياي، لم أكن أنتظر لحظة كهذه بعد أن تملأ اليأس كل ذرة في كياني، لكن قَدَر اللقاء طغى على عذابات الغياب المرير. لقد تخطيتُ كل ما اعترضني من جبلٍ أو صخور، غير أن الذي يصدم جبيني هذه المرة هو حجر الندم».

تمتُّ بهذه الكلمات وهي تمدُّ يديها نحوي لتوقيع نسختها من كتابي الذي رسمتها فيه، أمسكتُ بالقلم وبدي تترجفُ من هول المصادفة التي طالما انتظرتها وأنا أدوبُ بحثاً عنها.. ماذا أكتبُ لها؟ سألتُ نفسي، فكتبتُ: «إننا نخطُ إهداءً للغرباء فقط.. أما الذين نحبهم فمكانهم ليس في الصفحة البيضاء الأولى، بل في صفحات الكتاب»! ■